

احذر

أن تكون فرعونيًا

الحمد لله لا أحصى ثناءً عليه...

تحدث القرآن كثيرا عن نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام وفرعون، وقد ذكر اسم فرعون في القرآن قرابة الواحد والستين مرة على اختلاف السور، وما ذلك إلا لأن فرعون اتصف بصفات ذميمة كثر عددها.

وما تحدث القرآن عن شيء وأكثر من ذكره إلا لينبه الناس عليه، فإن كان خيرا لحقوا به وتأسوا به، وإن كان شرا بعدوا عنه ورغبوا عنه، فالمواقف في الحياة كثيرة وفي حياة الأنبياء عليهم السلام كبيرة، ولكننا نجد أن القرآن قد اقتصر على مواقف بعينها يبرزها للوجود ويحفظها مادامت الأرض والسماء باقيتين، لتتعلم البشرية منها ولتأخذ العظة والعبرة، ولتعلم السبيل للخلاص والتوبة والإنابة.

فرعون لم يكن سوى فرد آتاه الله من الملك الكثير وجعل له سلطانا يخشاه الناس، وجعل له أموالا ونفودا وأصحابا وجنودا يحتمي بهم وسحرة وكهنة يسحرون له ويشغلون الناس عن الحق وينقلونهم من النور إلى الظلمات، لذلك تكرر ذكره في القرآن ومع ذكره أورد القرآن صفاته الذميمة محذرا الرئيس والمرؤوس والراعي والرعية والغني والفقير، أن يسير على طريقته أو يستن بسنته، فليحذر الناس من هذه الصفات وليركنوا إلى ضدها فضدها حسن يحبه الله ورسوله ﷺ ويجمع عليه المصلحون، فاعتبروا يا أولي الأبواب.

وما ارتأيته في هذا البحث إيراد الصفات التي ذكرها القرآن لفرعون حسب ترتيب السور في المصحف وهي إجمالاً كالتالي:

١ - الطغيان في الأرض والبغي بغير الحق.

٢ - التكذيب والكفر بآيات الله.

٣ - الظلم لنفسه.

٤ - التطير بالمؤمنين.

٥ - نكث العهد مع الله ورسوله.

٦ - الغفلة.

٧- الاستكبار في الأرض والعلو.

٨- الإجرام.

٩- الصد عن سبيل الله.

١٠- الفسق.

١١- الاستهزاء بدعاء المؤمنين المظلومين.

١٢- الإفساد.

١٣- الإسراف

١٤- العصيان.

١٥- التعزز بالقوم والجنود.

١٦- ادعاء الألوهية.

ولقد ذُكرت تلك الصفات والآيات التي تحدثت عنها، مع التركيز عليها من القرآن وبعض الأحاديث النبوية وهدفه هو التنبيه على صفات هذا الطاغية وقصته التي أبقاها القرآن تحذيرا للمؤمنين أن يقعوا فيها أو يبتلوا بها .

الصفة الأولى: الطغيان في الأرض والبغي بغير الحق:

قال الله تعالى واصفا فرعون: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، وورد طغيان فرعون أيضا في نفس السورة في الآية الثالثة والأربعين، وفي سورة النازعات في الآية السابعة والثلاثين، ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُوا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

والطغيان والبغي في الأرض الذي قام به فرعون فصله الله تعالى في قوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، فمن كثرة طغيانه وبغيه في الأرض سام بني إسرائيل العذاب، قال الماوردي: «يزيدونكم على سوء العذاب، ومنه مساومة البيع، إنما هو أن يزيد البائع المشتري على ثمن، ويزيد المشتري على ثمن، وهذا قول المفضل»^(١)، وفرعون يسوم بني إسرائيل العذاب ويزيدهم عذابا إلى عذابهم، ولم يكتفي فرعون بهذا بل قام بذبح أولادهم، وأبقوا على النساء والبنات للخدمة والاستدلال.

فأي طغيان أشد من هذا تعذيبا لخلق الله، والبغي بهم، بدون شفقة أو رحمة، لأنه يظن أنه إله من دون الله كما سأذكر بعد قليل، وفرعون وصل إلى قمة الطغيان والبغي في الأرض وقد قال محمد بن كعب القرظي فيما رواه ابن أبي الدنيا في ذم البغي: «ثلاث خصال من كن فيه كن عليه: البغي والمكر والنكث»، وقد استقى هذا الكلام من القرآن الكريم حيث قال الله تعالى عن البغي: ﴿فَلَمَّا أَتَجَنَّهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَّتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣]، فبغي الإنسان عليه في النهاية وما من باغ أو عاد أو طاغ إلا انتقم الله منه في الحياة الدنيا قبل الآخرة وعذبه في الدنيا قبل الآخرة، قال ﷺ: «كُلُّ ذَنْبٍ يُؤْخِرُ اللَّهَ مِنْهَا مَا شَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا الْبُغْيُ وَعُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ أَوْ قَطِيعَةَ الرَّحِمِ، يُعَجَّلُ لِصَاحِبِهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْمَوْتِ»^(٢).

(١) النكت والعيون للماوردي: (١ / ١١٨).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد: ح (٥٩١). وصححه الألباني.

وقال ﷺ أيضًا: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا - مَعَ مَا يَدْخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ - مِثْلُ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»^(١).

فهكذا كان فرعون يمتلك صفة من أشد الصفات فتكًا في نفس الإنسان: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العلق: ٦-٨]، رأى أعرابي في حال كفره رجلاً يعذب رجلاً حتى مات، قال: «لو لم تكن هناك رجعي إلى حاكم عادل يأخذ بحق هذا لكان خلقنا عبثًا»، فكيف للإنسان ذلك، وهو **أوله نطفة قدرة وآخره جيفة نتنة ويمشي وهو يحمل العذرة**، ولكنها الأهواء، والطغيان الذي يجر صفات ذميمة معه، ويكون ثمرة للاستعلاء والتكبر.

فما بال الإنسان يطغى بخلق الله تعالى أن آتاه الله النفوذ والسلطان ويسير بينهم بالبغي والعدوان، أما يعلم أنه راجع يوما إلى ربه، ثم إنه سائله عن كل شيء مهما كثرت عبادته وصلاته وتضرعاته، قال النبي ﷺ يوما لأصحابه: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(٢).

وهذا فرعون ذمه الله في كتابه بل جازاه على طغيانه بعقوبة هي أشد وأنكى: ﴿فَأَلَيْكُم نُنَجِّيكَ بِدَنَّاكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]، فهل من معتبر وهل من متعظ؟

ولقد توعد الله تعالى في سورة إبراهيم من حذا حذو فرعون بالعذاب الشديد: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

(١) رواه أبو داود ح (٤٩٠٤)، والترمذي ح (٢٥١١)، وقال عنه حسن صحيح. وصححه الألباني في الصحيحة ح (٩١٨).

(٢) رواه مسلم في صحيحه: ح (٢٥٨١).

وَيَذِخُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ [إبراهيم: ٦-٧]، لأن ما وصل إليه فرعون من سلطان ونفوذ وملك كان من عند الله وليس من نفسه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، آية ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] فالملك بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده للعادل ليظهر عدله فيحب الناس العدل والعادل، وللطاغ ليشع الناس من الطغيان والظلم ومن اتصف بهما.

الصفة الثانية: التكذيب والكفر بآيات الله

قال الله تعالى عن فرعون: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١]، وقال أيضاً: ﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ (٤١) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَآخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْنِدِرٌ﴾ [القمر: ٤١ - ٤٢].

أتى الله فرعون جنان الدنيا، ثم أرسل الله له رسولا من عنده يدعوه إلى الدين الحق، ويطلعه أن هناك إلهًا يعبد، بيده مقادير كل شيء، يخفض ويرفع، يذل ويعز، حي لا يموت، لا يملك أحد معه شيئاً، فكان الاستنكار فكانت الحجة: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٢٢) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (٢٤) ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ (٢٥) ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٦) ﴿قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧) ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٨) ﴿قَالَ لَنْ أُنْخَلِدَ إِلَهُهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٢ - ٢٩]، ألجمه موسى عليه السلام الحجة فما كان منه إلا التهديد بالسجن بعد أن غلب وحار جواباً أمام تلك الحجج الدامغة التي تدل على وجود إله واحد لا شريك له بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

ولكن موسى عليه الصلاة والسلام لم يكتف بهذا بل أعطاه آيات بينات أخرى ليريه الحق فما زاده إلا تكديبا وكفرا: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ (٣٠) ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣١) ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (٣٢) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (٣٣) ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤) ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٥) ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٣٦) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ (٣٧) ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (٣٨) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ (٣٩) ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤٠) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤١) ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٢) ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَأَلْقَوْا جِبَاهَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعَزِّ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥) ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِينَ﴾ (٤٦) ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٤٨) ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا أَقْطَعُ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ

وَأَصْلَبْتَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الشعراء: ٣٠١ - ٥١﴾، آية يده وآية العصا آيتان ظاهرتان لا يحتاجان إلى تأويل، خاصة أن فرعون ساحر بل هو من علّم السحرة، ولكنه عدل عن الصراط المستقيم، فجمع فرعون لموسى السحرة فهزمهم موسى بالحق الذي عنده، وآمن السحرة الذين وقفوا بجوار فرعون ضد موسى، هذا لم يزدّه أيضاً إلا طغيانا وكفرا، وتكذيبا بآيات الله ورسوله.

إن النفس التي تريد الحق إذا جاءها أمر الله وتبين لها خضعت وسلمت له، وتقبلته بنفس راضية عاملة، ولكن قوة طغيان فرعون جعلته يكذب ويكفر فإنها صفات تتلو صفات وتجبر في ذيلها صفات أخرى.

إن الأعرابي فهم الأمر قديما فقال: «البعرة تدل على البعير .. والأثر يدل على المسير .. فسما ذات أبراج .. وأرض ذات فجاج .. ألا تدل على العليم الخبير»^(١)، أما يرى فرعون ويصر في نفسه كيف خلق، ومن خلقه، ألم يسير في الأرض فيتفكر وينظر كيف كان عاقبة الذين من قبله، ألم ينظر إلى الأنهار من تحته من يجريها ومن يرسلها، ولو شاء لجعلها أجاجاً.

بل زاده الله حججا بينات ليرجع فما كان من إلا النكوث والنكوص: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجُّ قَالُوا لِمُوسَى اذْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجَّ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَّ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿الأعراف: ١٣٣ - ١٣٦﴾، فسبحان الله يعلم أن موسى حق وأن هناك رباً وإلهاً يكشف الضر، ولكن لا يستجيب له عنادا وظلما: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُّبْصَرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتٍ ﴿١٣٧﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿النمل: ١٣ - ١٤﴾.

فالآيات أمامه وأخذه الله بالسراء والضراء ولكن أبى عقله وقلبه إلا التكذيب والإنكار. فكانت العاقبة أن أورد الله الغرق في الدنيا والنار في الآخرة والعبرة لغيره من بعده: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿غافر: ١٠﴾

﴿٤٦﴾ فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٤٧﴾

[يونس: ٩٢].

الصفة الثالثة: الظلم

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣]، ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبٍ ظَالِمٍ﴾ [الأنفال: ٥٤]، ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

يقول صاحب الظلال: «والذين يكفرون أو يشركون يظلمون الحقيقة الكبرى حقيقة الإلهية وحقيقة التوحيد، ويظلمون أنفسهم بإيرادها موارد الهلكة في الدنيا والآخرة. ويظلمون الناس بإخراجهم من العبودية لله الواحد إلى العبودية للطواغيت المتعددة والأرباب المتفرقة، وليس بعد ذلك ظلم، ومن ثم فالكفر هو الظلم»^(١).

فمن أعظم الظلم الذي وقع فيه فرعون أن يظلم نفسه بأن يوردها موارد الهلاك والجحيم، بأن يكذب بآيات الله ويكفر بها، ثم يظلم قومه بمنعهم من اتباع موسى عليه السلام، وقد بين الله ظلم الإنسان لنفسه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، ففرعون من الظالمين لأنفسهم.

وظلم فرعون كما بينت الآيات أيضا لا يقف عند ظلمه لنفسه بل تعدى لظلم غيره، والظلم ظلمات يوم القيامة، والله ينصر المظلوم ولو كان مشركا والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جدا، ولكن ما نريد أن نركز عليه ما كانت عاقبة ظلم فرعون لنفسه ولقومه...؟

كانت عاقبة ظلم فرعون لنفسه ولقومه: زوال ملكه، وغروب شمس، واضمحلال سلطته، وغرقه في المياه هو وجنوده ونجاة جسده ليكون لمن خلفه آية.

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم

(١) في ظلال القرآن عند تفسير قوله تعالى في الأعراف «فظلموا بها».

والإسلام^(١). وهذا على مستوى الدول والشركات والمؤسسات والمجتمعات وحتى على مستوى الأسر.

فعلى المسلم أن يجتنب الظلم وأن يعلم أن دعوة مظلوم لا يردّها شيء ولو كان كافراً.

(١) الاستقامة لابن تيمية: (٢ / ٢٤٧).

الصفة الرابعة: الطيرة بالمؤمنين

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

هذه الصفة تنبأ عن عدم فهم الأحداث التي تصيب الإنسان، وعدم العلم بقضاء الله وقدره.

وهذا لمن انتكست فطرته ورأى الحوادث وبنات الدهر من صنع خيالاته وأوهامه، ظانا بأنه الحق، حتى يصل الأمر إلى ربطها بالفئة المؤمنة الموحدة، اشمئزازا لها وحث النفوس الضعيفة على البعد عنهم.

إن التشاؤم بالمؤمنين هي صفات المنافقين الذي لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ألم تكن تلك دعوى المشركين على محمد ﷺ: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ قُلْ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، إن أصابهم قحط وسنة يدعون انه بسبب محمد ﷺ وبتباعهم له، ولكن الرد الإلهي كان حاسما: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، فالسيئة بذنوبنا وأخطاءنا وبما كسبت أيدينا: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ۖ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠ - ٣١]، فالله يعفو عن كثير وإلا لغرقنا في بحور ذنوبنا، ولانكسرت بنا مراكبنا في أمواج خطايانا، فلنرجع إلى الله قبل فوات الأوان ولنعلم أن ما أصابنا من شيء فبما كسبت أيدينا ويعفو عن كثير.

الصفة الخامسة: نكث العهد مع الله

قال الله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَءَ ابْتِئَافًا فَفُضِّلَتْ فَاَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ اٰدُعْ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ [الأعراف: ١٣٣ - ١٣٦]، وقال عنهم أيضا: ﴿ وَقَالُوا يَتَّيْنُهُ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿١٣٧﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٨﴾ [الزخرف: ٤٩ - ٥٠].

ابتلى الله فرعون وقومه بآيات كثيرة حتى يرجعوا إلى الله ويتوبوا إليه ويعلموا أن الله قوي قادر على أن يصرف الأمور كلها، وقد علم فرعون وقومه هذه الحقيقة فكانوا مع الابتلاءات المتعددة يذهبون إلى موسى ليدعوا الله لهم لينكشف الضر، وانتهى يذهبون إلى موسى الذي يتطيرون به كما ذكرنا آنفا في الآية رقم ١٣١ من سورة الأعراف أيضا، ويعدوه ويعطوه عهدهم أنه إذا كشف عنهم الضر ورفع عنهم البلاء آمنوا به بل وأرسوا معه بني إسرائيل، فيدعو موسى ربه لكشف الضر ولرفع البلاء فما يكون من فرعون وقومه إلا النكوث بالعهد وخلف الوعد ومع من؟؟ مع الخالق سبحانه وتعالى، فكانت العاقبة الانتقام من الله جل وعلا منه.

وتلك خصلة يمقتها الله في الإنسان أن يدعوه في الشدة ويعطيه الموائيق والعهود ثم إذا كشف عنه الضر نكث عهده، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتَ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَكْفُرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ [يونس: ٢٢ - ٢٣]، وقال أيضا: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا بَجَحْتُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٢٥﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ

قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغَرِّقُكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا يُجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٧﴾ [الإسراء: ٦٧ - ٦٩]، فتلك خصلة لا يحبها الله أن تكون في عبده فنكث العهد مع الله فيه سوء أدب واغترار بالنفس، نسأل الله العافية.

قال ﷺ: «إِنَّمَا سَتَكُونُ مِنْ بَعْدِي أُمَرَاءُ يُصَلُّونَ الصَّلَاةَ لَوَقْتِهَا وَيُؤَخِّرُونَهَا عَنْ وَقْتِهَا فَصَلُّوْهَا مَعَهُمْ فَإِنْ صَلَّوْهَا لَوَقْتِهَا وَصَلَّيْتُمُوهَا مَعَهُمْ فَلَكُمْ وَلَهُمْ وَإِنْ أَخَّرُوْهَا عَنْ وَقْتِهَا فَصَلَّيْتُمُوهَا مَعَهُمْ فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ مَنْ فَارَقَ الْجُمَاعَةَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَمَنْ نَكَثَ الْعَهْدَ وَمَاتَ نَاكِثًا لِلْعَهْدِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ»^(١).

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده: ح (١٦٠٨٩).

الصفة السادسة: الغفلة

قال الله عز وجل: ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا

غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

إن أحد أسباب كفر الإنسان بربه وعدم الخضوع لمنهجه؛ الغفلة عن آيات الله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، هذا هو حال فرعون لا يرجو لقاء ربه، رضي بالدنيا وما وصل فيها، اطمأن لملكه وقوة سلطانه وأمواله وجنوده فغفل عن آيات الله ومن يغفل عن آيات الله؛ غفل الله عنه ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ يَمَّا كَفَرُوا وَهُمْ أَكْفَرُ إِلَّا الْكَافِرَ﴾ [سبا: ١٧].

لقد ذكرنا الله كثيرا بتلك الآيات الشرعية والكونية وعدّ علينا نعمه التي لا تحصى لنعلم أنه النافع الضار، وأنه بيده الخير كله ولا يضر سحر ولا شيطان ولا حيوان ولا غيره إلا بإذنه وبمشيئته يصيب بذلك من يشاء ويصرفه عمن يشاء، كل هذا لنؤمن ونستجيب له ولا نكون كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فمن لا يؤمن بالآخرة ومن كذب بآيات الله عميت عليه تلك النعم فصار غافلا عنها لا يرى من صنع الله لها شيئا.

وهناك غفلة عن الآخرة وغفلة عما بعد الموت يقول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، فهم غافلون عن تذكر الموت وعن إعمار منازلهم في الآخرة يظنون أنها حياة واحدة يعيشونها، طمس على قلوبهم فهم لا يرون الآخرة ولا يرون القيامة ولا يعلمون ما بعد الموت من جنة أو نار.

الغفلة داء يصيب القلب فيورثه التكذيب بالله والاستكبار على أوامره، ويكون علاجه بالتذكير الدائم والنظر في ملكوت الله وتدبر آياته وذكره آناء الليل وأطراف النهار، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنِّ حِسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ وَلَا يَتَّقُونَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩]، فعلى الإنسان أن ينظر في الكون وفي نفسه، وعليه بذكر الله حتى لا يغفل قلبه وينسى خالقه ويغفل عن الآخرة.

الصفة السابعة: الإجرام

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَاءَ ابْنَ مَفْصَلَتٍ فَأَسْتَكَبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وقال أيضا: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٥]، وقال أيضا: ﴿ فَدَعَا رَبُّهُ أَنْ هَبْ لِي قَوْمًا مُّجْرِمُونَ ﴾ [الدخان: ٢٢].

وتلك صفة سابعة تضاف إلى رصيد فرعون وهي صفة الإجرام، والإجرام هو التعدي وهو أيضا الذنب، وهو من أعظم الذنوب وهو ليس الإشراف بل ادعاء أنه إله كما سنذكر بعد قليل إن شاء الله تعالى، وتعدي على حدود الله وتعدي على بني إسرائيل وتعدي على نفسه فظلمها وأوردها المهالك.

ولفظ الإجرام يوحى بشدة الرسوخ في الذنب والتمسك به، وهو لفظ أيضا يوحى بقوة الطغيان وعدم الخوف والخشية من الجبار، وقد وصفه الله كثيرا لأقوام غير فرعون وقومه كقوم لوط: ﴿ قَالَ فَاخْطُبْكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٢]، ووصف بها المنافقين المستهزئين بالله ورسوله ﷺ: ﴿ لَا تَعْنِدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُّجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٦]، ووصف بها قوم عاد الذين لم يخلق مثلها في البلاد: ﴿ وَيَقَوْمٍ أَستَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُّجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢]، وهذا على سبيل الأمثلة لا الحصر وإلا فقد وصف الله أقواما عدة بالإجرام بسبب تعديهم ووقوعهم في الذنوب ورسوخ أقدامهم فيها وعدم التوبة ولا الرغبة في التوبة.

ونفس المجرم ليست لوامة تلومه على ما يفعل، وليست نفسا سوية بل هي نفس تحب الفساد وتكره الخير حتى لنفسها وإلا لانصاعت له وفكت قيدها من جهنم.

والعجيب أن الله عز وجل لم يوصف أحدا بالإجرام إلا وكان مستكبرا معاندا ظالما غاشما لا يرشده قلبه إلى الله، طمس عليه وانتكست فطرته وتحجر قلبه، بل نجده مع قوة الآيات والعقوبات التي ينزلها الله عليه ليرجع إليه قد فقد الإحساس بها، فلم يعد يستشعر

الوخزات والمنبهات، وخذ على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ
 ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: ٣١]، وقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ
 أُولُوا بَقِيَّةَ يَنهَوت عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا
 فِيهِ وَكَانُوا مُّجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]، فنسأل الله العفو والعافية.

الصفة الثامنة: الاستكبار والعلو في الأرض

قال الله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وقال أيضا: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٥]، وقال أيضا: ﴿ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس: ٨٣]، وقال جل في علاه: ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ (٤٦) فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٦ - ٤٧]، وقال عز من قائل: ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَى الْفُتُورِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (٤١) وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٣٩ - ٤٢]، وقال أيضا: ﴿ وَفِرْعَوْنَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٩]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤]، وقال عز وجل: ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ٢٧]، وقال أيضا: ﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴾ [الدخان: ١٩].

إن من أقبح الصفات الاستكبار والعلو في الأرض وأتى القرآن يشعها في قلوب العباد ويرى المؤمنين مصير المستكبرين من أمثال فرعون وغيره، بل وأتت السنة النبوية تحذر منها وتبين ما هي صفاتها وعلاماتها على الإنسان قال النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ. قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ تَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»^(١).

(١) رواه الإمام مسلم: ح (٩١).

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلُّ عُتْلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ»^(١).

وصفة الكبر على الناس شديد عقابها فما بالك على الأنبياء وعلى أوامر الله؟

إن فرعون علا في الأرض واستكبر وطغى ثم آتاه البشير النذير فعلا عليه واستكبر كما بين القرآن ولم يؤمن استكبارا وعنادا وعلوا في الأرض، وخوفا من ذهاب سلطانه ومساواته مع الفقراء والضعفاء وهو المتكبر، فكان عقاب الله له أن أغرقه في شبر ماء وجعله للناس آية وعبرة، وتحذيرا لكل مستكبر جواظ لا يؤمن بيوم الحساب.

فالمؤمن الصادق لا يستكبر عن الحق أي كان، مهما آتاه الله من الملك ومن النفوذ، بل يسير بالتواضع واللين ليرفعه الله درجات العليين، ولا يستكبر ويعلو عن أوامر الله لأنه هو خالقه ويملك ناصيته ويملك حبل وريده، ولا يستطيع إنسان أن يرفع يده ويضعها إلا بمشيئة الله وقدرته، ولا يقوم من كرسیه ولا يجلس عليه إلا بأمره وإذنه، وانظر إلى عاقبة المتكبرين في الأرض دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها.

كانت عاقبته أليمة حيث استكبر وطغى: ﴿وَأَسْتَكْبَرَهُ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾^(٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي آيَةٍ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْتِكَارٍ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُصْرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ [القصص: ٣٩-٤٢]، فعاقبته لم تكن النار فقط وكفى بها عقابا ولكنه صار من أئمة الكفر الذين يدعون إلى الضلال فبئس اللقب وبئس الدعوة، ثم صار لا يذكر فرعون في كل الأديان إلا باللعن والطرده والسب فلعن الله وملائكته وجميع المؤمنين وفي النهاية صار من المقبوحين.

(١) رواه الإمام البخاري: ح (٤٩١٨)، ومسلم: ح (٤٦).

الصفة التاسعة: الصد عن سبيل الله

قال الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُمْ ۖ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۖ ﴿٧٩﴾﴾ وقال أيضا: ﴿إِلَّا فِرْعَوْنُ وَمَلَأَتْهُ قُلُوبُهُ كِبَارًا ۖ فَاتَّبَعُوهُ أُمْرًا فِرْعَوْنُ وَمَا أُمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۖ ﴿٨٠﴾﴾ وقال أيضا: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ۖ قَالَ يَبْنَؤُا الْيَمُّ لِيَ مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۖ ﴿٨١﴾﴾ أَمَّا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۖ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةُ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۖ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ ۖ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۖ ﴿٨٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ﴿٨٥﴾﴾ [الزخرف: ٥١-٥٥]، ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۖ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۖ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥].

لم يكتف فرعون بكفره وفسقه وتكبره وعلوه في الأرض ورفضه للأمر الإلهي باتباع موسى وما أنزل إليه، بل زاد أن صد عن سبيل الله وصرف الناس عن آيات الله، مرة بالترهيب ومرة بالترغيب.

وهذا الذنب له عقوبة أخرى في كتاب الله قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، فالكفر له عذابه الخاص والصد عن سبيل الله له عذاب آخر..

إن الصد عن سبيل الله تعالى ومنع الناس عن الهدى والإيمان يكسب الإنسان ذنوب وآثام الممنوعين دون أن ينقص من ذنوبهم شيء، قال النبي ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»^(١). فكيف بالإنسان يحمل وزره ووزر غيره يوم القيامة ويبوء بذنبه وذنب غيره، ما أبشعه وما أبشع كبره وعلوه في الأرض.

وزاد فرعون في إضلاله للناس وصدّه عن سبيل بالاستخفاف بعقول الناس وذكر أشياء هو في الحقيقة لا يمتلكها حتى يبين للعامة أنه هو الإله وأن موسى ليس بنبي وإله ليس هو

(١) رواه الإمام مسلم: ح (١٦).

الرب القوي، ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْعَثْ لِي مَلِكًا مِّمَّنْ هَٰؤُلَاءِ لَعَلَّهُمْ يُصِيبُ﴾ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٣﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٥]، وكلها علامات مادية تبهر القلوب الضعيفة، يعلق صاحب الظلال على هذا بقوله: «ولكن الجماهير قد تؤخذ بالخوارق المعجزة، وقد يجد الحق سبيلاً إلى قلوبها المخدوعة. وهنا يبرز فرعون في جاهه وسلطانه، وفي زخرفته وزينته، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْعَثْ لِي مَلِكًا مِّمَّنْ هَٰؤُلَاءِ لَعَلَّهُمْ يُصِيبُ﴾ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٣﴾».

إن ملك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون، أمر قريب مشهود للجماهير، يبهرها وتستخفها الإشارة إليه .

فأما ملك السماوات والأرض وما بينهما ومصر لا تساوي هبأة فيه فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد!

والجماهير المستعبدة المستغفلة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها؛ ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد!

ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب!.....

واستخفاف فرعون للجماهير أمر لا غرابة فيه؛ فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها؛ ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة. ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين!

ولا يملك فرعون أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يزنون بميزان الإيمان. فأما المؤمنون فيصعب خداعهم

واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح. ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَاَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ « انتهى بتصرف يسير.

الصفة العاشرة: الفسق

قال الله تعالى عن فرعون: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي نِجَاسٍ إِلَيْكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]، وقال: ﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَنِكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

الفسوق الترك لأوامر الله والعصيان لمنهجه وشرعه، والخروج عن الطريق المستقيم كما ورد في لسان العرب في مادة «ف س ق»، ففرعون اتسم بتلك الصفات الترك لأوامر الله والعصيان لرسوله والخروج عن الطريق المستقيم، فوصفه الله بالفسوق، كما وصف إبليس بالفسوق حال كونه عصي الله في السجود ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

فكل إنسان خرج عن أوامر الله وترك هديه وشرعه وخرج عن الطريق المستقيم فقد فسق وعصى، واستحق العقاب.

ونلاحظ أن الموضوعين اللذين ذكرا فيها تلك الصفة كانت مواضع إظهار علامات نبوة موسى عليه السلام أمام فرعون ولكن هذا لم يزد إلا فسقا، فقد تحجر قلبه وتبلدت مشاعره ولم يشعر بآيات الله في الكون ولا التي أظهرها موسى أمام عينيه، أغرق في سلطانه ونفوذه وأغرق في بحر أمواله وجنوده واستعلى بقوته ففسق عن أمر ربه.

إن فرعون لا يريد أن يتدبر أو يتفكر في أي شيء سوى هواه وميوله الحيوانية، لا يريد أن يستعلي بروحه عن قاذورات الدنيا فيرى الحق، فقد طبع على قلبه واتباع هواه. نسأل الله أن نكون ممن يريدون الخير ويرجون الله والدار الآخرة.

الصفة الحادية عشر: الاستهزاء بدعاء المؤمنين المظلومين

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

يظن فرعون أن موسى دجال ويظن أنه ليس مظلوما بل ظالما، لذلك فليدع ربه فلن يحدث لنا شيء، وهو يريد أن يشعر العامة أن لا رب لموسى يحميه سوى فرعون، ولذلك فليدعه وما يصيبنا؟؟

ولكن شخصية فرعون شخصية متناقضة إذا توسل لموسى كما أوردنا سابقا ليدع ربه ليرفعه عنه العذاب والرجز، فكيف لا يخاف من دعوة موسى ربه عليه؟؟
إنه طغيان السلطان والملك، فلا يا أخي لا تكن كفرعون لا يخشى دعوة المؤمنين عليه، ولا يخشى دعوة المظلومين عليه فكم كانت سهما قاتلا، وكم من طاغية قبله أو بعده ردد مقولته فانتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام.

الصفة الثانية عشرة: الإفساد

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣]، وقال أيضا: ﴿ءَاَلَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، وقال سبحانه: ﴿وَحَدِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّيعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

تلك هي الصفة الثانية عشرة من صفات هذه الطاغية إنها صفة الإفساد، فهو ليس كافرا فقط ولا ظالما فقط ولا فاسقا فقط ولا بل فاسدا يعيث في الأرض فسادا لذلك يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، قال الله تعالى عن مثله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، فالكفر والصد والإفساد ثلاثة خصال زاد الله بها عذاب فرعون ومثله، فهناك كافرون لا يعيشون في الأرض فسادا لهم عذاب وهناك من يعيث في الأرض ويعيث بها فسادا فعذابه مضاعف.

وحذر الله خلقه أن يكونوا فاسدين، فقال لبنی إسرائيل والخطاب لنا أيضا: ﴿وَإِذْ أَسْتَشَقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، وقال مخاطبا قوم عاد: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال مخاطبا قوم شعيب: ﴿وَيَقَوْمِ أَوفُوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥]، فالإفساد كره الله، ونزلت الرسائل تحذر الناس منه وتكرهه إلى نفوسهم، لأنه من صفات الباغين ومن صفات الذين لا يتبعون أمر الله.

الصفة الثالثة عشر: الإسراف

قال الله تعالى: ﴿فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١].

بلغ فرعون في طغيانه وبغيه وعدوانه درجة الإسراف، فأسرف في طغيانه وأسرف في عصيانه حتى نصب نفسه إلها من دون الله.

ومن عواقب الإسراف أن الإنسان يحشر أعمى يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [١٢٥] قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشْدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٥-١٢٧]، وعاقبته أيضا النار: ﴿وَأَنكَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

وقد وصف الله قوم لوط لشدة إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء بالإسراف في هذا ليس مرة أو اثنتين ليس رجلا أو رجلين بل أسرفوا وبغوا في هذا: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، فلذلك حذر الله عباده أن يسرفوا في أي شيء حتى في الطعام واللباس فقال: ﴿يَبْنَىٰ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال أيضا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتَ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فالإسراف خصلة من خصال إبليس فأوبق نفسه النار.

بل تواعد الله المسرفين بأنه لا يتغافل عنهم ولن يصفح عنهم فقال: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥].

الصفة الرابعة عشرة: العصيان

قال الله تعالى: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [الزمل: ١٦]، وقال أيضاً: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿قُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَى﴾ (١٨) ﴿وَاهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ (١٩) ﴿فَأَرْسَلْنَا آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (٢٠) ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ [النازعات: ١٧ - ٢١].

يقول الألوسي رحمه الله تعالى: «وعصى الله تعالى بالتمرد بعد ما علم صحة الأمر ووجوب الطاعة أشد عصيان وأقبحه، حيث اجترأ على إنكار وجود رب العالمين رأساً، وكان اللعين وقومه مأمورين بعبادته عز وجل وترك العظمة التي يدعيها الطاغية ويقلبها منه فتته الباغية، لا بإرسال بني إسرائيل من الأسر والقسر فقط، وفي جعل متعلق التكذيب موسى عليه السلام ومتعلق العصيان الله عز وجل ما ليس في جعلها موسى كما قيل، فكذب موسى وعصاه من الذم كما لا يخفى»^(١).

الله الذي خلقنا والذي أحيانا من العدم، والذي رزقنا السمع والأبصار والأفئدة، والذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، والذي أجرى الأنهار، وأجرى المحيطات هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج، والله الذي أرسى في الأرض رواصي أن تميد بنا، والله الذي أعطانا الخير كله، فكم من كربة كشفها، وبلية رفعها، وسوء أزاحه، ومصيبة هونها، وكم من لطف تراه العيون والأبصار، وكم لله من نعم سابغة علينا، ومن أحيى العظام وهي رميم، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، أبعد كل هذا نعصيه؟!

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]، وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

أرأيت عظم ذنب فرعون؟ أرأيت لما هو خالد مخلد في النار، عصى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، ولم يخضع لأوامره، فكانت الغواية وكانت الضلالة فكانت النار وبئس المهاد.

(١) روح المعاني: (٣٠ / ٣٠).

الصفة الخامسة عشرة: التعزز بالقوم والجنود

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ رُكْبَهُۥ ۖ وَقَالَ سَحَرُ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذَتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

[الذاريات: ٣٩-٤٠].

قال مجاهد رحمه الله تعالى: «تعزز بأصحابه»^(١)، وقال ابن زيد: «أي: بجموعه التي معه»^(٢)، فهو تعزز بأصحابه وتعضد بهم وبعنوده، يظن أنهم سيغنون عنه من قضاء الله شيء، أو يدفعون عنه شيئاً قد كتبه الله عليه، فهل نفعوه ساعة الغرق أم أغرقوا معه؟؟ إن كثيراً من الناس ليتعزز بعنوده وسلطانته ونفوذه ظاناً أنهم ينفعوه شيئاً، أو يدفعوا عنه ضراً ما، ولكن الله هو النافع الضار.

وإن أحد أسباب طغيان فرعون وعصيانه لله ورسوله؛ من التف حول له من جنود وبطانة سيئة أغروه بأنهم يدفعون عنه شراً أو يجلبون له خيراً، ولكن هيهات هيهات، يوم يناديهم فلا يستجيبون له بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فيه وما هو بالغة.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي فَنَتَّبِعَ اللَّهُ مِنْهُمْ لَمَا كُنَّا مِنَ الْخَارِجِينَ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقال أيضاً: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

(١) تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير: (٧/ ٤٢٣).

الصفة الخامسة عشرة: ادعاء الإلهية

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيَّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، وقال أيضا: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٤].

ختم فرعون قصة حياته بمأساة حقيقة، إذ كل مشرك أشرك بالله لم يدع أنه إله بل عبد صنما أو عبد بشرا غيره أو عبد حيوانات أو عبد شمسا، ولكن أن يعتقد في نفسه أنه إله، وأن يدعو لنفسه أنه إله، وهذا ما حصل من فرعون لعنه الله.

ادعى فرعون الألوهية ودعا الناس للإيمان به ربا ولا رب سواه، فختم قصة حياته بأعظم الكفر والطغيان والإسراف، فمن ظن نفسه، هل ظنها تحيي وتميت، هل ظنها تخلق وترعى، هل ظنها ترزق نفسها وتنزل الأمطار والأرزاق.

أسرف وطمع وتجبر وظلم وعصى واستهزئ بأوامر الله وفسق عن أمر ربه وكذب رسوله وكفر بآياته ونكث عهده مع الله وغفل عن آيات الله في الكون وفي نفسه غفل عن الموت والقيامة وأجرم، وعلا في الأرض واستكبر واستنكف، وصد عن سبيل الله فكانت العاقبة ادعاء الإلهية، فكان العذاب نارا خالد فيها، وجسما يعرض على الناس كل يوم لأخذ العبرة، ولكن هل من متذكر متدبر.

هذا ما تيسر إirاده، والحمد لله رب العالمين.

د. سليمان بن صالح الجربوع

suliman_jarbooa@hotmail.com

[/http://aljarbooa.com](http://aljarbooa.com)